المقدمة

أ. م. د. نــزار أيــوب حســن

تُعد العشيرة أحدى أهم الوحدات الاجتماعية في المجتمع الكوردي، إذ كانت - ولاتزال - تشكل ركيزة أساسية مهمة لهوية الشعب الكوردي طوال مراحل تاريخه العريق، وكثيراً ما تحولت إلى ما تشبه الكيانات السياسية شبه المستقلة، لاسيما عندما أقدم أفرادها على الدخول إلى الحدث السياسي المؤثر، وهم يحملون بين جنباتهم هويتهم العشائرية بالدرجة الأساس.

في الواقع، مثلت الإمارات الكوردية الهوية الكوردية داخل وخارج حدود كوردستان في العصر الحديث، إلا أن تلك الإمارات عانت بدورها من الانقسام الداخلي بسبب التنافس الكبير بين العشائر التي كان لها الدور الأبرز في قوة وضعف تلك الإمارات، لذلك اضطر الأمراء الكورد إلى إشراك زعماء تلك العشائر في القرارات والإجراءات التي كانوا يتخذونها بين الفينة والأخرى، على الرغم من ذلك، تعاملت الدول المحيطة بكوردستان، لاسيما الدولة العُثمانية والإيرانية، مع العشائر من خلال الإمارات الكوردية كما هو معلوم، حيث استطاع الأمراء الكورد إبقاء العشائر تحت هيمنتهم منذ بدايات القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، وتمكنوا من تقليص نفوذهم في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية للإمارة على حد السواء.

لقد شهدت كوردستان في منتصف القرن التاسع عشر نقلة جذرية من مختلف النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عندما أقدمت الدولة العثمانية على القضاء على الإمارات الكوردية الواحدة تلو الأخرى، تلك الإمارات التي مثلت النظام التقليدي

في كردستان وبسبب ما تقدم، أمست جزءا من الوعي الجمعي في المجتمع الكوردي، حيث كان الشعب قد تكيف مع مؤسساتها وقوانينها إلى حد أنهم كانوا يعدونها رمزا مقدسا بالنسبة لهم، وفي الحقيقة كان بإمكان تلك الإمارات الإقطاعية أن تصبح – في المستقبل- بمثابة لبنة مؤثرة لبناء دولة او عدة دويلات كوردية لكن ذلك لم يحدث لعوامل كثيرة.

في واقع الأمر، أختفت كل الإمارات الكوردية عن مسرح الأحداث في القرن التاسع عشر، وتلك الخطوة الخطيرة في تاريخ الشعب الكوردي كانت بمثابة الزلزال الذي هز المجتمع الكوردي بعنف، إذ تشظت كوردستان بصورة مأساوية، والتي كانت منقسمة أصلا بين نحو أربعين إمارة وزعامة، إلى المئات من الوحدات الصغيرة التي تعرف بأسم العشيرة كما هو معروف.

كان ذلك التغيير كبيراً جداً، فقد تحول الحكم من الأمير الى (آغا) العشيرة، و انتقل مركز السلطة من المدينة الى القرية، وتحولت قصور الأمراء إلى مضائف الآغوات وتغيرت قوانين الإمارة المستمدة من الشريعة الإسلامية وأعراف الشعب الكوردي منذ أقدم العصور إلى قانون الغابة التي يفترس فيها القوي الضعيف وذهبت التطورات التي عرفتها عواصم الإمارات في أدراج الرياح، وخيم الجهل والتخلف على كوردستان بصورة لصيقة.

فى وضع كهذا، تحولت العشائر الصغيرة وذلك الجزء من المجتمع الذى فقد هويته العشائرية وكان يحتمي بسلطة الامراء، الى لقمة سائغة تحوم حولها الحيوانات المفترسة اذا صح التعبير، لذلك اضطرت لأن تسلك إحدى الطريقين: إما الإتحاد مع عشائر أخرى و بناء إتحاد عشائري، وإما الخضوع لحكم العشائر الكبيرة، بحيث إما أن تكون موالية أو منقادة إليها.

الجدير بالذكر، يعد تاريخ كوردستان منذ منتصف القرن التاسع عشر لغاية اندلاع الحرب العالمية الأولى، تاريخ العشائر بحق ولا يكاد يلاحظ نشوء حركة أو أي تغيير مهم دون وجود ارتباط وثيق لها مع العشائر، لأن زعماء العشائر- كما ذكر- أصبحوا أصحاب القرار والسلطة، إذ أنه وبعد سقوط الامارات الكوردية أصبح لهولاء الزعماء- العشائر التي كان أغلب أفرادها أميين وغير متعلمين – الدور الأبرز في تمثيل الكورد أثناء التعامل مع الدول الإقليمية و الكبرى معا، كما غرقت كوردستان في الصراعات بين تلك العشائر وهذا ما أسهم في رواج صورة سلبية عن الشعب الكردي أمام العالم، ويمكن الاستدلال الى ذلك بسهولة من خلال كتابات الرحالة والباحثين الأجانب الذين زاروا كوردستان في تلك الحقبة.

على الرغم من كل الذي قيل، لم تكن حقبة إمساك العشائر بزمام بمقاليد الأمور في كوردستان مظلمة قاتمة في عمومها، إذ أنه بالرغم من تلك السلبيات تبلورت عدد من الإيجابيات منها : ظهور الكتاب والشعراء الذين كتبوا أعمالهم باللغة الكردية، فضلاً عن تطور الفلكلور الكردي واللغة الكردية عبر الأغاني التي كانت تمجد شجاعة ومروءة الزعماء الكورد ورؤساء عشائرهم المتنفذين.

تطور دور العشائر الكُردية في هذه الحقبة التاريخية بشكل ملفت للنظر، فبعدما كانت العشائر الكُردية تتجول وتعيش ضمن نطاق حكم الامارات الكُردية، رأت نفسها في مواجهة الحدث التاريخي وفي موقع القيادة السياسية التي تقود البلاد، فحلت تلك العشائر محل الجيش والإدارة في كُردستان في تلك المدة، وقد ظهر دورها بوضوح في الحرب الروسية-العثمانية ، ولكن المرفق الأخر والمهم هي ان العديد من تلك العشائر قد كونت لنفسها هيكلية سياسية واجتماعية وامنية على غرار الامارات الكُردية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأبرز تلك العشائر الكُردية التي سيطرة على أجزاء واسعة من كُردستان هي عشائر: المللي، الحيدران، جلالي، ميران...الخ. لذلك يمكن بحق إطلاق تسمية (العهد العشائري) على كُردستان خلال المدة التي تلت سقوط الامارات الكُردية وحتى الحرب العالمية الأولى.

يستنتج مما سبق، أن دراسة التاريخ الكردي دون التطرق لدراسة والبحث عن أهمية أدوار العشائر الكردية، تكون دراسة ناقصة فاقدة للمصداقية، ومن أجل ما تقدم، أخذ مركز زاخو للدراسات الكردية في جامعة زاخو- كلية العلوم الإنسانية على عاتقه، عقد مؤتمره العلمي الدولي الثامن حول العشائر الكردية وكردستان في عهد العشائر وبيان دورها في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، حيث يضم هذا الكتاب الذي بين أيديكم مجموعة البحوث العلمية والأكاديمية لأساتذة مختصين من مختلف الجامعات في إقليم كردستان والدول الأخرى، راجين أن تكون المعلومات الواردة بين دفتيه، منارة وضاءة للجوانب المظلمة من التاريخ الكردي في حقبة العشائر، وأن تكون أساساً لبحوث ودراسات أخرى في المستقبل القريب.